

تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول

محمد علي لساني فشاركي^١، سمية ذوالقدرنيا^٢

تاريخ الوصول: ١٤٢٧/٤/٢٥

تاريخ القبول: ١٤٢٧/١٠/٢٧

يعتبر التفسير بحسب ترتيب النزول أحد ألوان التفسير وأساليبه التي يلتزمها المفسر حيث يقسم عمله إلى تفسير بحسب ترتيب نزول الآيات وتفسير بحسب ترتيب نزول السور، والتقسيم الثاني - وهو التفسير بحسب الترتيب النزول - يعدّ أسلم لوبي التفسير بحسب النزول لأنه أقلّ عرضةً للتناقض وأكثر جمعاً للفوائد.

ومن المسائل التي عني الكاتب بما هي: إمكانية الوقوف على ترتيب النزول، ضرورته، أهميته وشرعيته، حيث وجّه الكاتب همّه للإجابة عنها وبيان الوجه فيها، وفي نهاية الأمر - مع الأخذ بعين الاعتبار ما ينطوي عليه كلا النوعين من الفوائد، وما يرد عليها من إيرادات - وجد الكاتب أنّ الطريق الأمثل هو الجمع بينهما، والإفادة من كليهما للوصول إلى طريقة واضحة المعالم يتوفّر فيها الناحيتان العلمية والعملية.

الكلمات الرئيسية: ألوان التفسير وأساليبه، الترتيب بحسب النزول، محمد عزّة دروزة

١. استاذ مساعد بجامعة إعداد المدرسين، طهران

٢. ماجستير في علوم القرآن والحديث جامعة إعداد المدرسين، طهران

المقدمة

أدى التأليف في التفسير على تعدد في مناهجه وتغاير في طرقه قروناً طويلاً إلى ظهور اصطلاح علمي جديد في القرنين الأخيرين، هو: «منهجية تفسير القرآن الكريم» وهو مصطلح متأخر، وجديد، مع تجذره و قدم أصوله. هذا المدلول الإصطلاحى الجديد يهدف إلى نقد مناهج التفسير لبيان مناقب ومثالب كتب التفسير ليتسنى لدارس المقارنة فيما بينهما إختيار أصحابها و أجمعها للفوائد، ويحفزه على الإفادة منها، دون أن يقف أمامها متحيراً أو تائهاً. على العموم كل المنهج التفسيري يصاغ في إطار عام يسمّى «لون التفسير و أسلوبه» و أنواعه فهي كما يلي:

١- التفسير بحسب الترتيب

١-١. التفسير بحسب ترتيب السور و الآيات في

المصحف (١)

١-٢. التفسير بحسب ترتيب التزول

٢. التفسير الموضوعي (٢)

هذا الإصطلاح يزيل الإبهام العارض من تداخله مع مصطلح «المنهج التفسيري» ومن هذه الجهة، يحسن أن نستعرض أنواع المناهج التفسيرية والتي يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

١. التفسير الثقلي

١-١. تفسير القرآن بالقرآن

١-٢. تفسير القرآن بالسنة

٢. التفسير العقلي - الإجتهدى

١-٢. التفسير الاصولي - الفقهي

٢-٢. التفسير الفلسفي

٢-٣. التفسير الكلامي

٢-٤. التفسير العرفاني

٢-٥. التفسير الأدبي

٢-٦. التفسير العلمي (٣)

و لا ننسى أن نشير إلى الارتباط الوثيق بين المنهج

التفسيري للمفسر ولون تفسيره لهذا كلا المصطلحين لا بد أن

يدارس في إطار «منهجية تفسير القرآن الكريم». والتفسير بحسب ترتيب التزول، الذي هو أحد أنواع الألوان التفسيرية، التي تُعين في تفسير الآيات وفهم المراد منها. هذا النوع من التفسير يحتاج إلى دراسة مستفيضة لأبعاده لتقييمه و بيان منزلته من بين سائر الألوان التفسيرية. وفيما يتعلق بهذا اللون التفسيري سنحجب في الفقرات التالية عن التساؤلات ذات الصلة:

١. التفسير بحسب ترتيب النزول

التفسير الذي يُعنى ببحث الترتيب الزمني للقرآن الكريم، وهو متأخر (٤) حيث يسلط الأضواء على الترتيب الزمني لنزول القرآن، أو التاريخ للقرآن الكريم، حيث يستعين بروايات مختلفة مكية ومدنية، وبأسباب التزول، وترتيب التزول، والناسخ والمنسوخ، تأريخ حياة الرسول الأكرم (ص)، و يفيد من إشارات القرآن لبعض الأحداث التي أرّخت الرسالة النبوية من مثل بدء الجهر بالدعوة، هزيمة الروم، غزوة بدر، غزوة تبوك، هذا اللون في التفسير، عينت مجموعة الآيات ذات العلاقة بالحادثة الزمنية (٥)، سواء كانت هذه الآيات سورة كاملة أو جزءاً منها^١.

من الجدير بالذكر أن التفسير يتخذ لونين إثنيين، بعد أن يتعين زمان نزول مجموعة الآيات و الترتيب الزمني لها وموقعها بين ما قبلها وما بعدها، والجوّ الذي نزلت فيه هذه المجموعة، مما من شأنه أن يعين على فهمها، وهذان اللونان أو الوجهتان في التفسير هما:

١-١ الترتيب بحسب نزول الآيات

يمكننا أن نلمح هذا اللون من التفسير في كتابات مهدي بازركان فحسب، ففي كتابه المسمّى «پا به پای وحى» (التفسير المتدبر للقرآن الكريم على حسب التزول) الذي كتب

١. انظر: نكونام، جعفر، در آمدی بر تاریخ گذاری قرآن، هستی نما، طهران ص ٢

ومما يؤخذ كذلك على هذا المنهج في التفسير هو غفلة المفسر عن الوحدة الموضوعية لآيات السورة الواحدة، والغرض الذي يتجه إليه موضوعها. وفي الحقيقة، فإنَّ المنهج أفقد المفسر نكاتها ووجوهاً في التفسير يمكن استخراجها تتبع وحدة النسق والهدف المترائي من الوحدة الموضوعية التي تجمع آيات السورة، و هو يصطدم مع السياق القرآني؛ لذا فقد مُني المنهج باعتراضات كثيرة سجلت كمعائب ومثالب و نواقص في التفسير رجحت كفتها على محاسنه وفوائده التي اشتمل عليها. لكن إذا قبلنا القول بأن آيات سورة ما لم يكن ليتلو في النزول آيات في سورة سابقة عليها إلا إذا اكتمل نزول سائر آيات تلك السورة، وبالحقيقة رتب الآيات في السور بأمر رسول الله على ترتيب النزول كما مال اليه بعض الباحثين^٥ وعليه فإنَّ النظرية السابقة مع عدم الأخذ بعين الاعتبار أوجه الصحة والضعف، فالاعتراضات التي وردت إليها مسبقاً لا تجد في هذه الحالة إليها سبيلاً. لكن النظرية على أي حال بحاجة إلى مناقشة، فعلى الرغم من خضوعها للمنهجية إلا أنَّ ثمة اعتراضات و مأخذ عليه، من ذلك: اعتماده على روايات في ترتيب النزول لا يوثق بها سواء كان ذلك بالنسبة لآيات مجموعة ما أم لآيات سورة بعينها. أيضاً فإنَّ الكاتب إعتد نتائج تخمينية معتمد الحدس والظن^٦. وكما هو مشهور: فإذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال، فلا يصحَّ على ذلك القطع بزمان نزول آيات سورة ما. مثلاً: فإنَّ الباحث التزم في تعيينه لزمان نزول سورتي الفاتحة والعلق على الأسس التي تبناها في كتابه، فقد احتمل أن يكون نزول سورة العلق في شهر رمضان من السنة الأولى من البعثة^٧. وعليه، فإنَّ إشكالات ترد على هذا اللون في التفسير، يعني: «تفسير القرآن بحسب ترتيب نزول الآيات»، والنتائج الموجودة من العمل به لا يمكن الوثوق بصحتها، وخاصة على النحو الذي اعتمده المفسر في كتابه

منه نصفه، نجده يتتبع موضوع الوحي في مجموعة آيات السورة السادسة عشرة، أو كما عبّر عنها بقوله «المجموعة التنزيلية السادسة عشرة». و على سبيل المثال: فإنَّ المجموعة الأولى من آيات الوحي هي الآيات ١-٥ من سورة العلق، حيث يعالجها بالتفسير لينتقل منها، قبل أن يتم تفسير سائر آيات السورة، إلى تفسير المجموعة الثانية من آيات الوحي، وهي الآيات ١-٧ من سورة المدثر، ومن ثمَّ ينتقل لتفسير الآيتين الأوليين من سورة العصر، دون تفسير الآية الثالثة، وهاتان الآيتان هما المجموعة الثالثة من آيات الوحي، وهكذا إلى أن يفسر آيات المجموعة السادسة عشرة من آيات الوحي^١.

إنَّ الأساس الذي اعتمده بازرگان لمعرفة ترتيب نزول الآيات المختارة جديد ومبتكر، وهو يعتمد الإحصاء وقاعدة الإحتمالات^٢. كوّن تصوراً لشخصيته وعلائم مجموعات الآيات عن طريق حساب عدد كلمات كل آية وكل سورة، أهمَّ العلامات والأشكال التي احتكم إليها لتعيين ترتيب النزول لكل مجموعة تنزيلية هي «الطول المبنى» كما اصطلح ذلك لنفسه، الأمر الذي لا يتسع بنا المقام لتفصيل القول فيه^٣.

لكن يكفي أن نشير إلى أنَّ جمعاً من الباحثين قد اعترضوا على طريقة استخراج العلامات والأشكال وأخذوا عليها بعض النقص، من ذلك عدم تحري الدقة في الإحصاء والحسابات التي بنى عليها المفسر اختياره للمجموعات^٤.

هذا الأمر كان يكفي لوضع إشارة استفهام حول نظرية المفسر التي بنى عليها تفسيره، سواء كان ذلك بالإستناد إلى الطريق الروائي أم بالاعتماد على النظرية ذاتها، فقد أخذ عليه أنه غير موثوق به و مصحوب بالشكوك و ذلك أنه يعتمد إلى إحداث تغيير في ترتيب آيات السورة، الذي هو التوقيفي كما نص عليه الإجماع.

١. بازرگان، مهدي، يا به يا وحي، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، طهران، ١٣٧٠ش

٢. نفس المصدر، ص ٨

٣. بازرگان، مهدي، سير تحول قرآن، شركت سهامی انتشار، طهران، ج ١، ص ٢٦-٤٣

٤. نكونام، در آمدی بر تاریخ گنداری قرآن، ص ٤٦ و ٤٧

٥. نفس المصدر، ص ٨٥

٦. نكونام، در آمدی بر تاریخ گنداری قرآن، ص ١٣٤، ١٣٥، ١٤٦، ١٥٣، ٢٩٠ و ...

٧. نكونام، در آمدی بر تاریخ گنداری قرآن، ص ٢٩٠

«بأى به يا وحى» (خطوة خطوة مع الوحى)، الذى لم يُعبر الوحدة الموضوعية والتناسب بين الآيات أي انتباه.

١-٢ الترتيب بحسب نزول السور

هذا اللون يعتمد تفسير آيات السورة كاملة من الآية الأولى إلى آخر آية فيها، وهو يحفظ لسور القرآن الكريم هويتها وشخصيتها، لكنه يرتبها حسب نزول آيات مفتحتها، وهو يشرع فى تفسير أول السور نزولاً فى مكة لينتهى بآخر سورة نزلت فى المدينة.^١

يشاهد هذا اللون من التفسير فى كتابات مفسرين معاصرين هما: سيّد عبد القادر ملاً حويش آل غازى (١٣٥٥ ق) فى كتابه «بيان المعاني على حسب ترتيب النزول» (٦) و محمد عزّة دروزة (١٣٨٠ ق) فى كتابه «التفسير الحديث» (٧) ^٢ و يلاحظ أنّ تأليف الكتابين قد تقارب زمانه، والجدير بالذكر أنّ كلا المفسرين ألّف كتابه دونما إطلاع على عمل الآخر، ولم يتأثر أحدهما بالآخر، إلا أنّ البعض يرى أنّ تأليف الكتابين كان فى ظروف مشابهة، فمنطقة الشام هي المنطقة التي احتضنت كلا المفسرين^٣، ولا بدّ من القول بأنّ كلا المفسرين ذهبا إلى نفس اللون من التفسير وهو التفسير بحسب ترتيب النزول، أمّا من حيث المنهج فى التفسير فقد اختلفا بصورة كاملة. فصاحب بيان المعاني يتخذ اتجاهاً صوفياً فى الوقت الذى نجد اتجاهاً ومنهجاً فى تفسير دروزة هو تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة وكذلك تفسيراً تاريخياً. وفى هذه المقالة ينصب بحثنا حول «التفسير الحديث»، وتتجه مباحثنا إليه بإعتباره مصداقاً للتفسير بحسب النزول.

اختار دروزة لون التفسير على حسب ترتيب نزول السور من بين ألوان التفسير الأخرى. فنجده يختار لنفسه «التفسير

بحسب ترتيب نزول السور» ويرجّحه على «التفسير بحسب ترتيب نزول الآيات»؛ لنفس السبب الذى تقدّم آنفاً وهو سعيه سلوك الطريق القويم الموقوف به لتعيين زمان نزول مجموعات من الآيات فى سورة ما، ليتسنى له القطع بنزول أيّ السور قبل غيرها؟ وخاصة فيما يتعلق بالسور المدنية لأنّ الخلاف أقلّ فى المكية حيث نجد فى الغالب نزولاً واحداً أي نزولاً دفعياً إلا ما كان فى بعضها من النزول التدريجى، بالإضافة إلى إتحاد السور المكية فى الموضوع، بخلاف السور المدنية التي تعددت وتنوّعت فيها الموضوعات^٤، وبالنظر إلى هذه الصعوبات التي تعترض المفسر فإننا نجد قد اختار لنفسه اللون الثانى فى التفسير. ومنهجه فى تعيين ترتيب النزول السور هو النظر فى مفتحتها. لذا فهو يذهب إلى أن عدداً من السور المكية والمدنية إحتوت آياتها مطالب وموضوعات لا ينطبق على ما قيل فيها من سبب النزول ورواياتها التي نقلت لها، وعليه فلا بدّ من القول بأنّ أقساماً من سور القرآن لم تنزل فى آن معاً بل نزلت فى أزمنة متفرقة على التباعد فى الفترة الزمنية حتى يكتمل نزولها. وعليه فإنّ وصف السورة بأنها نزلت قبل تلك أو بعد غيرها من السور، فإنّ المراد منه هو نزول مطلعها و مفتحتها قبل مفتتح ومطلع السورة الأخرى أو بعده، وعلى هذا يجرى ترتيب السور فى القرآن من حيث النزول.^٥

٢. إمكان الوقوف على ترتيب النزول

يمكن تصنيف العوامل المؤثرة فى تعيين (ترتيب) نزول الآيات و السور، بوجه عام، إلى ثلاث مجموعات: الآيات القرآنية ذاتها، الروايات المأثورة، والإجتهد بإعمال الرأي فى الآيات والروايات كليهما. وكلّ الذى يقال فى ترتيب نزول الآيات والسور على وجه صريح مرجعه إلى الروايات والأحاديث، وهي أعم من كونها روايات ترتيب النزول، روايات فى مكى السور والآيات ومدنيها، روايات اسباب النزول... وهي على

١. الحكيم، سيد منذر، شوال ١٤٢٢ق، التفسير الحديث محمد عزّة دروزة، الحياة الطيبة، بيروت، ط ٨، ص ٣٢١

٢. إيازى، محمد علي، شناخت نامه تفاسير، كتاب مبین، رشت، ص ٥٣

٣. سليمان، فريد مصطفى، محمد عزّة دروزة و تفسير القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض،

١٤١٤ق، ص ١٣١ و ١٣٢

٤. نفس المصدر

٥. دروزة، محمد عزّة، التفسير الحديث، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٤٢١ق، ج ١، ص ١٩

٦. نفس المصدر، ج ١، ص ١٢٥ و ١٢٦

ما تقدم لا يعني أن الترتيب الموجود في الآيات غير صحيح بالكلية، وإنه لا يصح الوثوق بها، فأغلب السور المكية قد نزلت دفعة واحدة أو أنها نزلت بالتدرج على تقارب في الزمان بين أقسامها، وبالنظر إلى محتواها، فإن ما جاء في الروايات بشأن ترتيب النزول، صحيح^٥. فيما يتعلق بآيات القرآن الكريم، فنجد أنه من الصعب الحصول على معلومات تفيد في إعطاء فكرة حول الموضوع ورصد زمان نزول الآيات، لذلك يجب التسليم بأن تعيين ترتيب النزول لكافة سور القرآن على نحو القطع متعذر، ولا يُسلم مدّع في ذلك، و ما ورد ذكره لبعض السور فليس إلا ظنّ دون اليقين.

٣. حكم الشرع في التفسير على حسب ترتيب النزول

الإعتماد في التفسير على ترتيب النزول لا يتعارض مع قدسية القرآن الكريم، و لا يلحق نقص في المصحف المتداول بيننا، لأنّ التفسير ليس مصحفاً مُعداً للتلاوة فحسب، بل هو عمل علمي و فني يأتي على كل سورة بنحو مستقل، فلا يقسح على هذا الوجه من التفسير في قداسة المصحف الشريف بتغيير في ترتيبه^٦.

أهمّ دليل يمكن الإستناد إليه هو سكوت الروايات بهذا الخصوص، فلم تمنع الروايات منه، فيفهم بقاؤه على الإباحة. صاحب التفسير الحديث، لما نهج في التفسير نهجاً يغاير سلفه من المفسرين، شرع في تلمس الدليل على الجواز، و قد طلبه من مفتي عصره لئسكت الألسنة الناقدة لعمله، و قد اسند لإثنين من مفتي سوريا القول بالجواز معتمدين في ذلك أدلة وشواهد تاريخية، ولا ضير في ذلك ولا مانع منه^٧.

من بين الأدلة المستفادة في ذلك ما ورد في روايات بشأن مصحف علي (ع) ومسألة الترتيب الإجتهدى للسور، فهما من أكد الأدلة والبراهين على الجواز^٨.

كثرها واتساع دائرتها إلا إنّه لا يمكن القطع بالمراد منها^١ كما أن تعيين ترتيب نزول صحيح لكافة السور غير ميسر، فلا يوجد ترتيب للنزول قد سلم من النقد أو استند إلى دليل قوي يمكن الوثوق به^٢ و لما لم تسلم الروايات من الاختلاف والتناقض، فقد لجأ الباحثون إلى تلمس المعايير و العلامات يمكن الوثوق بها و يطمئن إليها. من وجهة نظر دروزة - كما نقرأ ذلك في تفسيره - فإنّ أصدق معيار تعرض عليه الروايات هو القرآن ذاته، سواء كانت روايات تفسيرية أو غير تفسيرية. لذا فهو يستعين بالقرآن لمعرفة ترتيب النزول للآيات والسور، وعليه فقد ردّ الروايات التي لا تتطابق مضامينها مع القرآن، فلم يعتمد منها شيئاً في التفسير^٣، فعلى سبيل المثال بنحده يستعرض الروايات في ترتيب نزول سورة العلق، والقلم والمزمل والمدثر، فقد نصّت على اولية النزول لهذه السور، لكن لا يوجد مرجح في ذلك يكشف عن أقدمها نزولاً، إلا أنّه يقرر أنّ هذه الروايات لا تنطبق مع مضامين تلك السور، ففي سورة القلم نقرأ «إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين» و في سورة المزمل يقول الله تعالى «و رتل القرآن ترتيلاً» و في المدثر «إنّ هذا إلا قول البشر»، وأمّا الآية السادسة وما بعدها للعلق فنجد عناد المشركين وردّ الله تعالى و تفنيده لمزاعمهم، ففي كلّ ما تقدم آيات سبقت هذه الآيات في هذه السور وأنها آيات تلت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، ليصحّ وقتها الخطاب «و رتل القرآن ترتيلاً»، «...أساطير الأولين»، «إنّ هذا إلا قول البشر»، فالآيات التي توسطت هذه الآيات والآيات الخمس من سورة العلق هي آيات دعوة وإنذار للكفار، لإتحاذ موقف منهم، من ذلك سور: الفاتحة، الأعلى، الشمس، العصر، الليل... وغيرها مما إشتمل على أصول ومباني الدعوة الإسلامية^٤.

١. أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، ترجمه مرتضى كرمي نيا، طرح نو، طهران، ١٣٨٢ش

٢. دروزة، التفسير الحديث، ج١، ص١٣

٣. دروزة، التفسير الحديث، ج١، ص٣٧٨ و٣٧٩

٤. نفس المصدر، ج١، ص١٢٥ و١٢٦

٥. نفس المصدر، ج١، ص١٣ و١٤

٦. دروزة، التفسير الحديث، ج١، ص٩

٧. نفس المصدر، ج١، ص١١ و١٢

٨. نفس المصدر؛

وعلى الرغم من عدم اعتقاده بما جاء من أدلة أي موضوع مصحف امير المؤمنين (ع) وموضوع الترتيب الإجهادي، إلّا أنه لجأ إليهما ليقفل من حدة النقد الموجّه إليه بسبب تحسّس البعض منه، ليقول للجميع بأنّه لم يقترف بدعة في ابتكاره هذا وعليه، فلا بدّ من الإقرار بأنّ هذا اللون التفسيري على الرغم من اشتماله على فوائد جمّة، إلّا أنّه لا يخلو من عيوب سنشير إليها. لكن من وجهة نظر الشرع لا مانع منه.

٤. ضرورة وأهميّة لون التفسير بحسب ترتيب النزول

نلمح أهميّة وضرورة اتباع هذا اللون من التفسير في كلمات محمد عزّة دروزة، والذي من خلاله يمكننا أن نتبع مراحل سير السيرة النبويّة، كذلك فإنّ مراحل التنزيل (مراحل نزول القرآن) وكيفيّتها يمكن أن تقف عليها بشكل أوضح وأدقّ بالوقوف على ترتيب نزول السور الكريمة، وبهذا فإنّ قارئ القرآن يكون قد عاين النزول وعايش ظروفه، وتجلّت له حكمته^١ ولا ننسى أنّ القرآن الكريم هو أصدق وأوثق مصدر قصّ علينا مجتمع وحياة النبي (ص) سواء كان ذلك بيان الوجهة الاقتصادية أم الجغرافية أم الثقافيّة، أم الدينيّة أم الأخلاقيّة،... مضافاً إليه، فإنّ القرآن بسورة المكية والمدنية تتبّع لنا مجرّبات السيرة النبوية ليقصّها علينا، وأوضح لنا كيفية العلاقة التي ربطته باللّٰه والناس وخلاصة القول، أنّ القرآن لم يصور لنا كافّة جوانب السيرة النبوية وأجواءها فحسب، بل إنّ آيات كثيرة أشارت بوضوح إليه وصرّحت بالقول به، سواءً كان ذلك بطريق العبارة أم بطريق التلميح إليه.^٢ ولا يخفى أنّ التنبّه إلى العلاقة الوثيقة التي تربط السيرة النبويّة بالوحي القرآني له تأثير بيّن في فهم الآيات الكريمة والوقوف على مراميها، فالقرآن قصّ علينا مواقف دعوة مختلفة للرسول (ص) أمام المؤمنين، والمشرّكين والمنافقين وأهل الكتاب على أكمل وجه وأبينه، ونلاحظ من ذلك إنسجاماً في هذه المواقف السابق منها

واللاحق متّجهة نحو مسير واحد. كما أنّ إدراك هذه المسألة يفيد في فهم مواقف القرآن و الوقوف على ما تضمّنه من بيان دون محاولة إضافة فهم خاص عليه وتحميله معاني غريبه لا صلة لها به، وهذا من شأنه أن يعلم الفكر دون الإنقياد وراء انحرافات والتخرّصات التي لا دليل عليها. ومما نلاحظه في كتاب الله تنوع الخطاب والمخاطبين والحديث عن الإرادة الإلهية وقضاؤه الحتمية وتقديره تعالى في أمور معيشة الناس من جهة و بداء في حكمه من جهة أخرى. هذا وغيره دليل على وجود علاقة وثيقة بين الوحي والأحوال والأوضاع التي عاصرت التنزيل وأهمّها السيرة النبوية المطهرة، ومن ذلك نجدنا قادرين على تحليل التغيير في لحن الخطاب والأحكام ونجدنا غير محتاجين للقول بأنّ الله العالم بمغيبات الأمور ماضيها ومستقبلها وحاضرها، فلم أحدث تغييراً في أحكامه ونسخاً لها، وتدرّج فيها بين الشدة واللين؛ لأنّ الخطابات القرآنية وبيانات الوحي الإلهي تطابقت وحال الطبيعة والفطرة وقوانينها التي هي كلها من صنعه تعالى، العالم بأحوال الخليقة الموجد لها، وعليه فإنّ الله سبحانه أنزل كتابه وأحكم قوله ليطلق ويوافق ما سنّه من أحكام وقوانين في هذه الحياة.^٣

٥. دراسة نقدية لهذا اللون من التفسير

٥-١. اعتراض وارد على المسألة

يرى بعض الباحثين في معرض انتقاده لهذا اللون في التفسير: «إنّ تتبع ترتيب النزول للسور عمل سهل، لأنّ التاريخ حفظ لنا هذا، لكن رعاية ترتيب نزول السور، لا صلة له بفهم معاني آيات القرآن الكريم؛ لأنّ المقدار المعلوم لنا حول السور الكريمة، مكية أو مدنية، ونزولها في أوائل البعثة أم أواخرها، في سنوات الهجرة الأولى أم أواخرها، وأين نزلت وفي حق من نزلت، هذا المقدار كاف لفهم معاني آيات السور هذه، سواء كانت في مطلع السور أم أواخرها نزولاً، لكن موقعها بحسب

١. نفس المصدر، ج ١، ص ٩.

٢. دروزة، التفسير الحديث، ج ١، ص ٣٣ و ٣٤.

٣. نفس المصدر، ص ١٤٢-١٤٣.

رأينا لأبحاث عن أحوال تنزيلها، صغيرها وكبيرها. والسورة التالية لها في النزول. أما الأمر في مثال «العلق» فلا يصحّ لأنّ وجود سورة سبقتها في النزول أمر منتف. وهنا مثالان استقيناهما من كتاب «التفسير الحديث» يوضحان لنا أهمية الوقوف على ظروف التنزيل:

النموذج الأول: تصحيح النظرة تجاه الأهداف الموجودة في أوائل السور نزولاً

يستدلّ المفسر لدى تفسير الآيتين السادسة والرابعة من سورة العلق، مشيراً إلى بعض السور أسبق منها في النزول مثل: سورة القلم، المزمل والمدثر... فيستوحي من خلال مذمة حبّ المال والحرص في الدنيا، حيث ورد في السور هذه: إطعام المساكين، التصدق على الفقراء، الإنفاق في سبيل الله. ويستدلّ من ذلك على أهمية هذه الموضوعات التي وردت في أسبق السور نزولاً، مؤكّداً وجهة نظره بأنّ هذه الأمور تكرر ذكرها في سور مكّية وأخرى مدنيّة^٣.

النموذج الثاني: تصحيح النظرة إلى الروايات التاريخية الإسلامية والسيرة النبوية

يستدلّ دروزة بأوائل السور نزولاً أنّ دعوة النبيّ الأكرم كانت منذ اليوم الأول علنيّة، ويشير لذلك إلى سورة القلم والمزمل والمدثر والتكّاثر والماعون والكافرون، حيث يراها مؤيدة لوجهة نظره التي ذهب إليها، لأنّ مضامينها تشهد بقيام نزاع بين النبيّ (ص) وبين المشركين المعاندين. ويستعرض الروايات التي تحدّثت بأنّ الدعوة بدأت سرّيّة، ثم انتقلت إلى مرحلة العلانية، ويوجّه هذه الروايات بقوله: أنّ الرسول (ص) كان يأمر أتباعه بالتخفي في أداء الصلاة ليكونوا بعيدين عن أعين الكفار فلا يتعرضوا حينها للأذى والتنكيل من قبلهم، وهذا لا يعني وجود مرحلتين في الدعوة، سرية وأخرى علنيّة^٤.

ترتيب النزول لا يكسبها ميزة خاصة ولا يضيف عليها معان جديدة.^١

ثم يتابع هذا المعترض قوله بذكر خمس آيات الأول من سورة العلق، مضيفاً قوله: «إذا كانت هذه الآيات أوّل ما نزل من القرآن، فما هي المعاني الخاصّة التي اكتسبتها وما ميزة ذلك^٢.

٢-٥ ردّ الاعتراض

قبل أن يكون دروزة مفسراً، كان مؤرخاً مطّلعاً على أهمية جزئيات المسائل وعلاقتها ببعضها وأثرها في الحوادث، وأهمية طريقة التعامل معها في فهم حادثة بعينها، ولعلّ هذا الأمر من أهمّ العوامل التي دفعته لإبتكار هذا اللون في التفسير. كما أنّ معرفة المكّي من المدنيّ وأيها نزل أوائل البعثة أم أواخرها، وغيرها مما سبق ذكره، هذا كلّه بمترلة مصادر معلومات للمفسر تساعد في فهم معاني الآيات، لكن هذه النظرة الكلية لخلوها من الجزئيات تُضيق على المفسر معلومات مفيدة. كما أنّ تفسير سورة ما و معرفة متى نزلت و قبل أيّ السور نزلت يقدم لنا على الأقل معلومات عن مكّية السورة ومدنيّتها، فالمفسر في هذه الحالة إذا لم يمتلك معلومات كافية حول السور المختلفة التي سبقت هذه السورة نزولاً يمكن أن يفقد معلومات أخرى بشأها. من هذا نقول: أنّ تمييز ومعرفة ظروف التنزيل التي أشار إليها مفسرنا، لن نكون مثمراً إلاّ إذا عرفنا أيّ السور أسبق النزول و أيّها تأخّر نزولها، ومن خلال فهم ظروف التنزيل نخلص إلى الإطّلاع على جوّ النزول ومن ثمّ إلى معرفة معاني آيات السورة على نحو أسهل، فإشارة المعترض إلى سورة العلق لا يصحّ هنا، لأنّ الآيات الخمس الأول منها هي أول ما نزل وكافة المفسرين على اطّلاع بأحوال تنزيلها، صغيرها وكبيرها، أمّا إذا اخترنا سورة أخرى لدراسة أثر معرفة جوّ النزول على فهم معانيها

١. معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون، مؤسسه فرهنگي التمهيد، قم، ١٣٨٠ق، ج٢،

ص٥١٩-٥٢٠

٢. نفس المصدر؛

٣. دروزه، التفسير الحديث، ج١، ص٣٢٦-٣٢٧

٤. نفس المصدر، ج١، ص٣٢٢-٣٢٣

٥-٣ لون التفسير بحسب ترتيب النزول، من زاوية أخرى

نلاحظ أن لون التفسير لدى دروزة يتجه إلى هدف عظيم وهو فهم الآيات القرآنية بالتزامن مع فهم دقيق للسيرة النبوية، صحيح أن هذا اللون لا يخلو من سلبيات إلا أنه يمكن تداركها وعلاجها ليكون أكثر نفعاً وأجدى أثراً. وههنا لا يسعنا إلا أن نشير إلى مسألة هامة هي: أن هذا اللون في التفسير لا يعارض ولا يناقض اللون التفسيري بحسب ترتيب السور في المصحف، مما لا يوجبنا في ذلك إلى توجيه النقد التدافع له. فاللونان غير متعارضين؛ لأن هدفهما واحد، بل إن كل واحد منهما مكمل للآخر ويمكن الجمع بينهما، بل إنه يساهم في التقليل من نسبة الخطأ ويفيد في تعيين المراد من آيات القرآن، ويعين على الفهم. والنقص الذي يرد على لون التفسير لدى دروزة هو قلة إكترائه بموضوع المناسبة واتصال الآيات فيما بينها، مما يفوت على المفسر فوائد جمّة، وبالرغم من تتبع المفسر لترتيب نزول السور، إلا أن إنسجام آيات كل سورة مع موضوعها الأساسي التي تتمحور عليه من الأمور التي أغفلها دروزة، مما عدّ نقصاً في اللون؛ من جهة أخرى، فإن التفسير بحسب ترتيب المصحف لا يساعد المفسرين في فهم الأحكام والآيات مع تفهم لأحداث السيرة الشريفة، فالاهتمام بجوِّ ومحيط النزول والتاريخ المقطوع بصحّته خلال القيام بتفسير كتاب الله سبحانه يعدّ أمراً غير موجود في عمل أكثر المفسرين الذين ينهجون التفسير بحسب ترتيب المصحف.

٥-٤ لون مقترح يقدمه كاتب المقالة

مع الأخذ بعين الاعتبار الإيجابيات والسلبيات التي يتضمّنهما كل لون من التفسير، فإنّ الحلّ الأمثل هو الجمع بينهما والتلفيق بين خطاؤهما ومراحلهما؛ لأنّ الجمع بين هذين اللونين ليساعدنا في تدارك سلبياتهما و رسم لون أحسن وأكمل حال من المثالب كثير الفوائد. واللون المقترح للتفسير عبارة عن «التفسير بحسب ترتيب المصحف» لأننا نؤمن بأنّ الترتيب على هذا النحو توقيفي و يوقفنا على ترابط السور فيها بينها لتبيين

أوجه المناسبة لهذا الإتصال، لكننا لن نتوقف عند ذلك فحسب، بل سنفيد من «التفسير بحسب ترتيب النزول»؛ وبعبارة أخرى، فإنّ اللون المشار إليه هو تتبع «ترتيب النزول السور، وجوّ النزول لكل منها، قراءة في السيرة النبوية و تاريخ صدر الإسلام» على نطاق واسع ودقيق، يعني هيكلية التفسير و قالب اللون التفسيري هو «التفسير بحسب ترتيب المصحف» و محتواه مستفاد من كل من «ترتيب النزول» و «ترتيب المصحف».

٦-٦ جواب و ردّ شبهة

في نهاية المقالة، من الواجب علينا ردّ شبهة مفادها: أن الترتيب بحسب النزول وجوّ النزول، والتفسير المستقى من ملاسبات النزول قد يحدّد من مفاهيم القرآن التي تتسع لكل زمان ومكان ولا تتوقف عند عصر التنزيل وموقعه الجغرافي، مما يقدح في خلود القرآن، وللإجابة نقول إن القرآن نزل ليعالج الإنسان من حيث هو إنسان، وقد تعامل مع المجتمع البشري آنذاك من حيث هو مجتمع بشري، لا لأيّ وصف آخر، فخاطب الطبيعة الإنسانية وخصائصها الروحية والجسمية، وأما هذه الطبيعة البشرية فهي ثابتة وأما مستلزمات العيش فهي متغيرة لأنها مادية تتخذ أشكالاً مختلفة بتقدّم الزمان وتباعد المكان.

من هذا نقول، إنّ الوقوف على خصائص المجتمع البشري صدر الإسلام ومعرفة الحوادث آنذاك يسعنا في درك طبيعة الخطاب القرآني ومغزاه وطريقة علاجه وإصلاحه لأدواء الإنسانية، ومن هذا كله نستقي الدواء كما استقاه الذين من قبلنا من القرآن عصر النزول، وهو ميسر فهمه والعمل به كما تيسر لهم مثل ذلك.

الهوامش

١. يقوم المفسر في هذا اللون من التفسير، الذي هو في الغالب لون المفسرين منذ بداية عهد التفسير إلى الآن، بتفسير و شرح سور القرآن الكريم حسب الترتيب في المصحف، فيبدأ بتفسير

Poonawala, I .k. 1993. Muhammad 'Izzat Drwazās principles of modern exegesis., pp. 225 – 246. in: Approches to the Qurān. Eds. Hawthing, G.r. and Shareef, Abdul – kader. A. , London, Routledge.

٩. للمزيد من المعلومات، أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٣ق، ج ١٣، ص ٢٣٥؛ وأيضاً: فارسي، جلال الدين، پیامبري و انقلاب، بدون محل الطباعة، نشر اميد، بدون تاريخ، ص ١٨

المصادر و المراجع

[١] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، ترجمة مرتضي

كريمي نيا، نشر طرح نو، طهران، ١٣٨٢ ش

[٢] أيازي، محمد علي، شناخت نامه تفاسير، نشر كتاب

مبين، رشت، ١٣٧٨ش

[٣] بازركان، مهدي، يا به پای وحی (التفسير المتدبر للقرآن

الكريم بحسب النزول)، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية،

طهران، ١٣٧٠ ش.

[٤] بازركان، مهدي، سير تحول قرآن، طهران، شركت

سهامي انتشار، ١٣٦٠ش

[٥] جليلي، هدايت، روش شناسی تفاسير موضوعی قرآن،

نشر الكوير، طهران، ١٣٧٢ ش

[٦] الحكيم، سيد منذر، شوال ١٤٢٢ ق، التفسير الحديث

لمحمد عزة دروزة، مجلة الحياة الطيبة، بيروت، ط ٨

[٧] دروزة، محمد عزة، التفسير الحديث ترتيب السور حسب

النزول، دارالغرب الاسلامي، بيروت، ١٤٢١ ق .

[٨] سليمان، فريد مصطفى، محمد عزة دروزة و تفسير القرآن

الكريم، مكتبة الرشد الرياض، ١٤١٤ ق

[٩] شلتوت، محمود، من هدى القرآن، القاهرة، دار الكاتب

للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

[١٠] صدر، محمدباقر، المدرسة القرآنية، دارالتعارف

للمطبوعات، بيروت، بدون تاريخ

«الفاحة» و يختتم تفسيره بسورة «الناس» (صدر، محمد باقر،

المدرسة القرآنية، دارالتعارف للمطبوعات، بيروت، ص ٨-٩).

٢. التفسير الموضوعي، عمل منهجي يعنى بجمع الآيات،

ذات الموضوع الواحد المتعلق بحياة الناس، حيث يعالجه القرآن

بالنظرة الخاصة (جليلي، هدايت، روش شناسی تفاسير

موضوعي، النشر الكوير، طهران، ١٣٧٢ش، ص ١٧٠،

وانظر كذلك الى: شلتوت، محمود، من هدى القرآن،

دارالكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٣٢٢-٣٢٣).

٣. تقسيم المناهج التفسيرية إلى أنواع ودراستها، أحد

المباحث الجديدة والمتأخرة، كذلك فإن هذه المباحث كانت من

خلاف بين الباحثين، والتقسيم المذكور في نص المقالة، هو نموذج

لهذه التقسيمات، وهو مستفاد من دروس الدكتور أمير جودوي

في جامعة طهران، حيث يظهر منه أنه أكمل وأوضح من غيره.

٤. التعبير بكلمة «متأخر» لايشمل الحديث عن مصحف

الإمام علي (ع)؛ لأن الرواية في كون مصحف أمير المؤمنين

مرتب بحسب النزول غير موثوق بما، كما أن مصحف

الإمام غير موجود بيننا، وعليه فإن استعمال كلمة «متأخر»

ليس بخطأ. (مهدي راد، محمد علي، آفاق تفسير، هسني نما،

طهران، ١٣٨٢ش، ص ١٠٠-١٠٣)

٥. يصطلح على أي مجموعة من الآيات تنزل على سيدنا

محمد (ص) و يوحى من الله إليه، سواء كانت سورة كاملة أم

قسماً من سورة «دُفعة النزول» (نكونام، جعفر، درآمدي بر

تاريخ گذاري قرآن، هسني نما، طهران، ١٣٨٠ش، ص ٢.

٦. عاني، عبدالقادر ملاً حويش آل غازي، بيان المعاني،

مطبعة الترقى، دمشق، ١٣٨٢ق.

٧. دروزة، محمد عزة، التفسير الحديث، دارالغرب

الإسلامي، بيروت، ١٤٢٠ق.

٨. للمزيد من المعلومات حول منهج دروزة، انظر: رسالة

جامعية لمرحلة الماجستير، تأليف كاتبة المقالة به عنوان «نقد و

دراسة التفسير الحديث تأليف محمد عزة دروزة»، جامعة اعداد

المدرسين، طهران، ١٣٨٤ش، وانظر أيضاً:

- [۱۱] الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ۱۳۹۳ ق.
- [۱۲] آل غازي، عبدالقادر ملاحويش آل غازي، بيان المعاني، دمشق، مطبعة الترقى، ۱۳۸۲ ق.
- [۱۳] فارسي، جلال الدين، پیامبری و انقلاب، بدون محل الطباعة، نشر امید، بدون تاریخ
- [۱۴] معرفت، محمدهادی، تفسیر و مفسران، قم، مؤسسه الثقافیه التمهیید، ۱۳۸۰ ش.
- [۱۵] مهدوي راد، محمد علی، آفاق تفسیر، طهران، نشر هستی نما، ۱۳۸۲ ش
- [۱۶] نکونام، جعفر، درآمدی بر تاریخ گذاری قرآن، طهران، نشر هستی نما، ۱۳۸۰ ش.
- [17] Poonawala, I .k. 1993. Muhammad ‘Izzat Drwazás principles of modern exegesis., pp. 225 – 246. in: Approches to the Qurān. Eds. Hawthing, G.r. and Shareef, Abdul – kader. A. , London, Routledge.

تفسیر قرآن کریم بر اساس ترتیب نزول

محمد علی لسانی فشارکی^۱، سمیه ذوالقدرنیا^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۸۵/۳/۲

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۵/۸/۲۹

تفسیر براساس ترتیب نزول یکی از انواع طرحهای تفسیری است که روش تفسیری مفسر در آن پیاده می‌شود و خود به دو نوع تفسیر براساس ترتیب نزول آیات و تفسیر براساس ترتیب نزول سوره‌ها تقسیم شده که نوع اخیر نسبت به نوع دیگر از نقایض کمتر و فواید کاربردی بیشتری برخوردار است.

امکان دستیابی به ترتیب نزول، ضرورت، اهمیت و جواز شرعی آن، مسائل مهمی است که نگارنده درصدد پاسخ‌دادن برآمده و در نهایت با توجه به فواید و نقایصی که هر دو طرح تفسیر براساس ترتیب مصحف و تفسیر براساس ترتیب نزول سوره‌ها با آن روبرو می‌باشند و نیز با توجه به عدم تعارض این دو طرح با یکدیگر، ادغام و تلفیق آن دو را بهترین راه حل برای دستیابی به یک طرح تفسیری جامع و کاربردی می‌داند.

واژگان کلیدی: روشهای تفسیری، ترتیب نزول، محمد عزّة دروژه

۱. استادیار گروه علوم قرآن و حدیث دانشگاه تربیت مدرس، تهران

۲. کارشناس ارشد علوم قرآن و حدیث دانشگاه تربیت مدرس